الدرس : المحظور بين علماء الأنثروبولوجيا واللغويين

د. عبد الحميد بوفاس

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة

إنّ كلمة المحظور أو اللامساس أو ما يعبّر عنها أحيانا بالتابو المقابلة للكلمة الأجنبية taboo ، قد استعملت في اللغات الأوروبية من آثار رحلة كابتن (كوك) إلى (بولينيز) عام 1777م، إذ كانت تعني عند سكان جزيرة (تونكا) المحرّمات أو المحظورات ذات العلاقة بالقوى الخفية فوق الطبيعية.[i]

واستعملها فيما بعد علماء الأنثروبولوجيا بمعنى " المنع المستند إلى جزاء سحري أو ديني يؤدي خرقه إلى إنزال القوى فوق الطبيعية العقوبة بمن يخرقه." [ii]

وهذه الظاهرة هي ما يطلق عليه اسم اللامساس أو الحظر ، وهو ترجمة لكلمة taboo وتطلق على كلّ ما هم مقدس ، أو ملعون ، يحرّم لمسه أو الاقتراب منه، من الأشياء وأسمائها بسبب الاعتقاد الخرافي في سحر الكلمة.[iii]

ونجد اهتمام علماء الاجتماع بظاهرة المحظور من خلال النظر إليها على أنها نسق أو نظام له مضمون اجتماعي أو ديني . وممن عرفوا تلك الظاهرة (دور كايم) الذي ذهب إلى أنذ المحظور هو تحريم ديني مرتبط بكل ما هو مقدس ، في مقابل السحر التحريمي المرتبط بما هو مدنّس. وهو مرتبط بالطبيعة الدينية والأخلاقية للفرد.[iv]

إذن فهناك كلمات وألفاظ وعبارات ومعان يرفضها المجتمع ، لكونها ممنوعة او غير أخلاقية ، أي تؤدي إلى الخدش بالحياء العام أو المساس بكرامة الآخرين ، أو أنها تدخل الرّعب والخوف في نفوس سامعيها ، لذلك نلجأ إلى تغييرها نهائيا والعدول عنها إلى مفردات أخرى ، أو تغيير بنيتها الصوتية.

أمّا اللغويون فقد نظروا إلى المحظور على أساس تحريم استخدام بعض المفردات أو العبارات التي لا يقبلها المجتمع ، لسبب من الأسباب ، وهي بذلك مرفوضة دينيا أو أخلاقيا . كما انّه لا يكتب لها البقاء ، فإنها تتعرض للتغيير.[v]

ولعلّ مجالات الحظر تتعدد وتتنوع ، ومن أهمها :

- الدين – الجنس وقضاء الحاجة– الموت والمرض – قوة الاعتقاد في قوة الكلمة وتأثيرها وسحرها–

ويمكن أن ننظر إلى مسألة المحظور من باب التطور اللغوي ، فهو جانب مهم من الجوانب التي تعنى بدراسة الدلالات الجديدة التي لم تكن أصلا للفظ ، على اختلاف سبب التغيير في المعنى .

فمن عوامل التطور ما هو مقصود متعمّد ، كقيام المجامع اللغوية والهيئات العلمية بمثل ذلك، عند وجود الحاجة إلى خلع دلالات جديدة ، على بعض الألفاظ التي تطلبتها حياة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية جديدة . وهناك عوامل أخرى لاشعورية تتم دون تعمد أو قصد منها السياق المضلل الذي نسمع فيه الكلمة لأول مرة . [vi]

وأهم مظاهر التطور الدلالي ثلاثة: تخصيص الدلالة ، وتعميم الدلالة ، وتغيير مجال استخدام الكلمة .أي أن معنى الكلمة يحدث فيه تضييق أو اتساع أو انتقال.[vii]

" أحيانا تبتذل بعض الألفاظ ويمجها المجتمع ، ويعافها الذوق، ومن الألفاظ الدائمة التطور والتغير ، تلك التي تشير إلى التبول والتبرز ، والعملية الجنسية وأعضاء التناسل ، فلا يكاد اللفظ منها يشيع ، حتى يمجه الذوق الاجتماعي ، وتأباه الآداب العامة ، فيستعاض منه بآخر من اللغة نفسها، أو من لغة أجنبية." [viii]

ويشبه ذلك ما حدث في العربية ، في أسماء الحمّامات ، وأماكن قضاء الحاجة ، فمنها ما وضع قبل العصر الحديث، بزمن لا نعرف مداه، لفقدان الوثائق التي تبين لنا ذلك الزمن، في كثير من الأحيان. فمثلا لا نعرف متى استعملت كلمات مثل : المرحاض ، وبيت الأدب، والحمّام ، ودورة المياه، وكلها لا تزال حية في ريف بلادنا ، حتى يومنا هذا، غير أنّ الناس فس المدن ، استعاروا للدلالة عل هذا المكان، كلمات من اللغة الأجنبية ، مثل : الكابينيه، التواليت، وأخيرا الدبليوسي w.c .[ix]

وبعض الألفاظ يصاب يما يشبه الحظر على استعمالها في المجتمع ، لأن الناس يتشاءمون من ذكرها ، فيستبدلون بها كلمات أخرى، كاستعمالهم المبروكة للحمى، والمرض الخبيث للسرطان.

ففي الديانة اليهودية تعرف كلمة يهوه في العبرية بمعنى الإله ينطقها اليهود :(أذوناي) بمعنى سادتي بسبب الخوف الذي يسيطر عليهم لارتباط الاسم القديم بالكوارث واللعنات التي حلت عليهم خلال تاريخ اليهود الطويل.[x]

وهناك عادات في المأثورات الشعبية لكثير من الأجناس والأمم ففي بلاد المجر في العصور الوسطى كان الأطفال يسمون أحيانا بأسماء وقائية ، كأن يدعى الواحد منهم : بالموت الصغير، أو ليس حيا آو القذارة أو الوسخ، وذلك لصرف الأرواح الشريرة عن هذه المخلوقات..." [xi]

وقد تلجأ المجتمعات في مثل هذه الحالات إلى التعبير بكلمات أكثر غموضا وأسع دلالة ، وتهذب بعض الكلمات ، مثل : البصير للأعمى ، وانتقل إلى رحمة الله لمات..[xii]

وما ينبغي أن نشير إليه هو أنّ بعض الكلمات قد يكون محرّما في مجتمع آخر ، تبعا للعادات والتقاليد والمعتقدات السائدة ، على حين نجد لها قبولا واستعمالا في مجتمع آخر .

" فبعض الشيعة يعدّ اسم أبي بكر وعمر من ألفاظ السباب على حين يقدّر هذان العلمان عند أهل السّنة تقديرا عظيما."[xiii]

كما لا ينبغي إغفال وجود ظاهرة المحظور اللغوي في التراث العربي ، حيث كان العرب يحسون ثقل بعض الكلمات أو دلالتها على عيب أو شيء فظيع مكروه ، فتفننوا في أساليب التلطف والكناية في معالجة تلك الظاهرة.

---

[i]– محمد حسن عبد العزيز : علم اللغة الاجتماعي ، ص/314.

[ii]– المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[iii]– رمضان عبد التواب: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ط(3)، مكتبة الخانجي القاهرة، 1979م ، ص/203.

[iv]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[v]– المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[vi]– رمضان عبد التواب: التطور اللغوي ، ص/189.

[vii]– المرجع نفسه، ص/194.

[viii]– المرجع نفسه، ص/201.

[ix]– المرجع نفسه ، ص/202.

[x]– رمضان عبد التواب : اللغة العبرية، قواعد ونصوص ومقارنات، القاهرة، 1977 م، ص/75.

[xi]– ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ، تر : كمال بشر، القاهرة ، 1962 م، ص/ 178.

[xii]– نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، ص/166.

[xiii]– محمد حسن عبد العزيز : علم اللغة الاجتماعي ، ص/319.